﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الأدلَّةِ على صِدقِ النَّبيِّ ﷺ في جميعِ ما أخبَرَ به

لَمّا كان المُشرِكونَ قد أنكَروا السّاعةَ؛ لِقَطعِهم بأنَّ مَن مُزِّق كُلَّ مُمَزَّقٍ لا يمكِنُ إعادتُه، فقطعوا - جهلًا - بأنَّ اللّه تعالى لا يقولُ ذلك، فنَسَبوا الصّادِقَ ﷺ في الإخبارِ بذلك إلى أحَدِ أمْرَينِ: تعمُّدِ الكَذِبِ، أو الجُنونِ؛ شَرَع اللّهُ سُبحانَه يذكر البراهينَ على صِدقِ النَّبيِّ ﷺ في جميعِ ما أخبَرَ به، فبدأ بإثباتِ قُدرتِه على ذلك، وذكَرَ فيه تهديدًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرَوْاْ﴾: (رأي) تدُلُّ تصريفاتُه على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَينٍ أو بصيرةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمْرِ، وجمعُه الآراءُ[2]، والرُّؤيةُ: إدراكُ المَرئيِّ، وذلك أضربٌ بحسب قِوى النَّفس، فالأوَّلُ: بالحاسَّة وما يجري مجراها، نحو قول اللّه تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التّكاثر: 6 - 7]، والثّاني: بالوَهْمِ والتَّخيُّلِ، نحو قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]، والثّالث: بالتَّفكُّر، نحو قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: 48]، والرّابع: بالعَقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النّجم: 11]، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفس أحد النَّقيضين عن غلبةِ الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[3]، والرُّؤيةُ بالعَيْنِ تتعدَّى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 453، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 195.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).

إلى مفعولٍ واحدٍ، وأمّا الَّتي بمعنى العِلْم؛ فإنَّها تتعدَّى إلى مفعولين، والرُّؤية في الآية: رُؤيةٌ بصريَّةٌ، والمقصودُ بها: حثُّهم على التَّأمُّل والتَّدبُّر؛ ليتداركوا عِلْمَهُم بما أهملوه[1].

2) ﴿خَلْفَهُم﴾: أصلُ (خلف) خِلافُ قُدّام، وتكونُ اسْمًا وظرفًا، فإذا كانت اسْمًا؛ جرت بوجوه الإعراب، وإذا كانت ظرفًا؛ لم تزل منصوبةً على حالها[2]، يُقالُ: هذا خَلْفي، وهذا قُدّامي، والخَلْفُ: الظَّهْر[3]، ومن البابِ الخِلْفُ، وهو الواحدُ من أخلافِ الضَّرْع، وسُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّه يكونُ خَلْفَ ما بعدَه[4]، والمُرادُ بِـ ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ هنا: ما هو وراءَ كُلِّ أحدٍ منهم[5].

3) ﴿نَخْسِفْ﴾ (خسف) تدلُّ اشتقاقاتُه على غُموضٍ وغُؤورٍ، وإليه يَرجعُ فُروعُ البابِ[6]، فالخَسْفُ والخَسَفُ: زلزالٌ شديدٌ تنشقُّ به الأرضُ، فتحدُثُ بانشقاقها هوَّةٌ عظيمةٌ تسقُط فيها الدّيارُ والنّاسُ، ثمَّ تنغلقُ الأرضُ على ما دَخَلَ فيها[7]، قال اللّهُ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، ومنه الخَسيفُ: البئرُ المحفورة في حجارة يخرج منها ماءٌ كثيرٌ[8]، والمقصودُ بالخَسْفِ في الآية: انقلابُ ظاهرِ الأَرضِ في باطنها من الزِّلزالِ[9].

4) ﴿نُسْقِطْ﴾: (سقط) تدلُّ تصريفاتُه على الوُقوعِ، وهو أصلٌ مُطَّرِدٌ، فمن ذلك: سَقَطَ الشَّيءُ يَسقُطُ سُقوطًا[10]، والسُّقوطُ: طرحُ الشَّيء، إمّا من مكان عالٍ إلى مكان منخفض، كسقوط الإنسان من السَّطح[11]، والمَسْقَطُ - بالفتح - السُّقوطُ، وتساقط الشَّيْء: تتابع سُقوطه[12]، والسِّقَطُ والسُّقاطُ: لما يقلُّ الاعتداد به[13]، والمرادُ بالسُّقوط في الآية: وقوعُ الشَّيءِ مِن مكان عالٍ إلى مكانٍ منخفض.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (خلف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 153.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسف).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 165.
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (خسف).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 162.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقط).
(11) الراغب، المفردات: (سقط).
(12) ابن سيده، المحكم: (سقط).
(13) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (سقط).

5) ﴿كِسَفًا﴾: (كسف) تدلُّ تصريفاتُه على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[1]، ومِنهُ: الكِسْفَةُ، وهي القِطعَةُ من السَّحاب والقُطنِ والصّوف، فإذا كانَ واسِعًا كثيرًا؛ فهو كِسْفٌ[2]، يقال: أعطني كِسْفَةً مِن ثوبِكَ، والجمع: كِسْفٌ وكِسَفٌ، ويقال: الكِسْفُ والكِسْفَةُ واحدٌ[3]، والكَسْفُ - بالفتح - مصدرُ: كَسَفْتُ البعيرَ؛ إذا قطعت عرقوبَه، وكذلك كَسَفْتُ الثّوبَ؛ إذا قطعتهُ، والتَّكْسيفُ: التَّقطيعُ، والمقصودُ بالكِسَفِ في الآية: جمع كِسْفَةٍ، وهي القِطعَةُ مِنَ السَّماء التي تنزلُ، فَتُلْقي الرُّعب، وقد تكون نارًا تلهبُ، وتفزع[4].

6) ﴿مُّنِيبٍ﴾: (نوب) تدلُّ اشتقاقاتُهُ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إلَيْهِ[5]، يُقال: نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسُمّي النَّحل نوبًا؛ لرجوعها إلى مقارِّها، والإنابة إلى اللّهِ تعالى: الرُّجوعُ إليه بالتَّوبة وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][6]، ويُقال: فلانٌ ينتاب فلانًا، أي: يقصده مرَّةً بعد أخرى، والمُنيبُ مَنْ أَنابَ؛ إذا رَجَعَ[7]، والمقصودُ بالمُنيبِ هنا: الرّاجعُ بفكرِهِ إلى البحثِ عمّا فيه كمالُهُ النَّفسانيُّ وحُسْنُ مصيرِه في الآخرةِ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه سبحانه مُنبِّهًا الكفّار على قدرته، ومهدِّدًا لهم بسوءِ العاقبةِ؛ إذا ما استمَرّوا في ضلالِهم وجهالاتِهم: أفلم ينظر هؤلاء المكذِّبون بالمعاد، الجاحدونَ للبعثِ بعد المماتِ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فإنْ نَشَأْ؛ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ،

من قدر على خَلْق الأجرام العظام لا تعجزه إعادة الأجسام

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كسف).
(2) ابن عباد، المحيط في اللُّغة: (كسف).
(3) الجوهري، الصحاح: (كسف).
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4453.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نوب).
(6) الراغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (نوب).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (نوب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 154.

أو نأمر السَّماء، فتسقط عليهم كِسَفًا، فإنّا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم؛ فعَلْنا، لكنّا نُؤخِّره لحِلْمِنا، وعفونا، إنَّ في ذلك لَدَلالةً لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللّهِ تعالى راجِعٍ إليه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لكونِهِ استِئنافًا مَسوقًا لِتَهويلِ ما اجْتَرؤوا عليه، وقالوه مِن تَكذيبِ آياتِ اللّهِ تعالى، واستِعظامِ ما قالوا في حقِّه ﷺ، وأنَّه مِن العظائمِ الموجِبةِ لِنُزولِ أشدِّ العِقابِ، وحُلولِ أفظَعِ العذابِ مِن غَيرِ رَيْثٍ وتأخيرٍ[2]، ويأتي الفصلُ في هذه الآيةِ لإبرازِ الانتقالِ إلى خطابٍ حِسّيٍّ مُباشرٍ ممزوجٍ بتهديدٍ لإرادَةِ تنبيهِ العقولِ إلى ما هو مشاهدٌ محسوسٌ مِنَ البراهينِ الدّالَّةِ على القُدرةِ والعظمةِ، مِمّا يقطعُ عُذرَ المُشركين، ويُثبتُ قُدرةَ اللّهِ على الخلقِ والبعثِ، فهو استِئنافٌ مسوقٌ لتذكيرهم بما يُعاينون، مِمّا يَدُلُّ على كمالِ قُدرته ﷻ[3]؛ وتنبيههم على ما يَحتمِلُ أنْ يقَعَ مِن الأمورِ الهائلةِ في ذلك؛ إزاحةً لاستِحالتِهم الإحياءَ حتَّى جَعَلوهُ افتراءً وهُزْءًا، وتَهديدًا عليها، والمعنى: أعَموا، فلمْ يَنظُروا إلى ما أحاطَ بجوانبِهم مِن السَّماءِ والأرضِ، ولم يَتفكَّروا أهُم أشَدُّ خلقًا أم هي[4]؟.

الانتقالُ إلى ذِكرِ البُرهانِ الحِسّيِّ المقرونِ بالتَّهديدِ في مواجهةِ الإنكارِ

دلالةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ خرجَ عن أصلِهِ من الدِّلالة على طلب العلمِ بشيءٍ لم يكُن

التَّأكيدُ على وُجوبِ التَّأمُّلِ في آياتِ الخَلْقِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 218، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 264، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 496، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 62.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 285.

(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 4/ 242، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 286.

معلومًا مِنْ قبلُ، بل المقصودُ بالاستفهامِ التَّعجيبُ المقرونُ بالتَّوبيخِ والإنكارِ على انتفاء تأمُّلهم فيما بين أيديهم وما خلفهم مِنَ السَّماء والأرض، أي: مِنَ المخلوقات العظيمةِ الدّالَّة على أنَّ الذي قَدِرَ على خَلْقِ تلك المخلوقات من عدَمٍ، هو القادرُ على تجديدِ خَلْقِ الإنسانِ بعْدَ العَدَمِ[1]، فهذه الآيَةُ تَدُلُّ على وجوبِ النَّظَرِ والاعتبارِ فيما حصَلَ مِن الآياتِ في السَّماءِ والأرضِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ يُرادُ بِهِ التَّوبيخُ، ولا يوبَّخون إلّا على تَركِ واجبٍ[2].

دِلالةُ العطفِ بالفاءِ:

تقريرُ التَّلازمِ بَيْنَ الإيمانِ والتَّأمُّلِ في آياتِ الخلقِ

الفاءُ في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ عاطفةٌ على مُقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ، ومِن معانيها: التَّفريعُ، فهي تفرِّعُ ما بعدها على قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ﴾؛ لأنَّ رُؤية مخلوقاتِ اللّهِ تَعالى في السَّماء والأرض من شأنِها أن تَهديَهُم لو تأمَّلوا حَقَّ التَّأمُّل[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاء دونَ الواوِ:

بَيانُ شدَّةِ التَّرابطِ بين الجُملتين

جاءَ التَّعبيرُ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ دون الواوِ؛ لأنَّ الاعتبارَ فيها بالمُشاهَدةِ، ولِشدَّةِ اتِّصالِها بما قبلَها[4]؛ لأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الذين قَسَموا الكلامَ في النَّبيِّ ﷺ، وقالوا: محمَّدٌ إمّا غافلٌ أو كاذبٌ، وإمّا مَجنونٌ هاذٍ، وهو قولُهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾، فقيل لهم: بَل تَركْتُم القِسمةَ الثّالثةَ، وهي: إمّا صَحيحُ العقلِ صادقٌ[5].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

بيانُ عماهُم عَنِ التَّفكُّرِ في آياتِ اللهِ

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ جُملةٌ إنشائيَّةٌ مصدَّرةٌ بالاستفهام

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 83.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(4) الزَّركشي، البرهان: 4/ 150.
(5) الكرماني، أسرار التَّكرار، ص: 208، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 383.

والنَّفي، ومعنى الاستفهامِ عن انتفائِها منهم: انتفاءُ آثارِها من الاستدلالِ بأحوال الكائناتِ السَّماويَّة والأرضيَّة على إمكانِ البَعْثِ، فَشَبَّه وجود الرُّؤية بعدمها، واستُعير له حرف النَّفي بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والمقصود: حثُّهم على التَّأمُّل والتَّدبُّر؛ ليتداركوا عِلْمَهُم بما أَهْمَلوهُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الرُّؤية) في الفعل ﴿يَرَوْاْ﴾:

لفظُ الرُّؤيةِ جامعةٌ بين النَّظر والدَّعوة إلى التَّأمُّل

الرُّؤيةُ في الآية الكريمة بصريَّةٌ في قول بعض أهل العلم بالتَّفسير، بقرينة تعديتها بحرف ﴿إِلَىٰ﴾، ومعنى الاستفهامِ عن انتفائِها منهم: انتفاءُ آثارها مِن الاستدلال بأحوالِ الكائنات السَّماويَّة والأرضيَّة على إمكان البَعْث[2].

والأَوْلى أن تكونَ شاملةً للرُّؤية البصريَّة التي بمعنى النَّظر، والرُّؤية القلبيَّة التي بمعنى العلم والتَّفكُّر، والمعنى: أنَّ اللّٰه يحثُّهم على أن يتفكَّروا حَثًّا يُراد به التَّهديد[3].

وجاءَ التَّعبيرُ بالرُّؤية دون الإبصارِ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ قوَّةٌ في العين تَنْقُل صورَ الأشياء، فيُدْرِكُها العقل، وتلك هي الرُّؤية، ثُمَّ يحصل العلم بالمرئيِّ، فكأنَّها مراحلُ مُتتابعة[4]، فيكون ذلك دعوةً إلى التَّأمُّل والتَّفكُّر، وليس مُجرَّدَ النَّظرِ المجرَّدِ بالعَين، فهُم يُصبحون، ويُمسون على آثار اللّٰه دون أن يُعمِلوا عقولهم فيها، فاختيارُ النَّظمِ الكريم لِلَفْظِ الرُّؤيةِ في الآية أَدخلُ وأعمقُ دلالةً على الجمع بين النَّظر والدَّعوة إلى التَّأمُّل[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 152.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 79.
(4) المنجد، الترادف في القرآن، ص: 182.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 457.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارع المنفي ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

إظهارُ تقصيرِهم الدّائم في التَّأمُّل في آيـات الله تَعالى

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل المُضارع ﴿يَرَوْاْ﴾ يوحي بالدَّوامِ والاستمرار، مِمّا يَقْتَضي أنَّ عدمَ تأمُّلهم في هذه الآيات ليس أمرًا عارضًا، بل هو سلوكٌ مُتكرِّرٌ ومتأصِّلٌ فيهم، فالله ﷻ يوبِّخهم على إهمال مُستمرٍّ رُغْم تَكرار المشاهد الكونيَّة التي تُحيط بهم.

والنَّفيُ في الآيةِ ليس نفيًا مجرَّدًا، بل يتضمَّنُ الإنكار عليهم؛ لإظهارِ تَقْصيرِهم المستمرِّ في أداء واجبِ التَّأمُّل في آيات الله سُبحانَهُ.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في: ﴿يَرَوْاْ﴾:

تعميقُ التَّوبيخِ المـوجَّـه إليـهـم وتقويته

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾، أي: أَعَميَ هؤلاء الكُفّار الذين لا يُؤمنون بالآخرة[1]، وغَشيَت أبصارُهم، فلم يروا ما أحاط بهم مِن آثار قدرةِ الله في السَّماء والأرض، مِن أجرام فلكيَّة وعوالمَ ذريَّة وخَلْقٍ كبير وآخر صغير، وكُلُّ ذلك آياتٌ شاهدة وأدلَّة ناطقة بِقُدرة الله تَعالى على البعثِ والنُّشورِ، فليرتدعوا عن جهْلِهم، ولِيَنْزَجِروا عن تكذيبهم[2]، فالضَّميرُ في قولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ راجعٌ لهؤلاء الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ، حيث وقَّفهم الله تعالى على قُدرتهِ، وخوَّفهم من إحاطتها بهم[3]، والتَّعبيرُ بالضَّمير يربط بَيْنَ الآيات السّابقة التي وصَفتْ هؤلاءِ المُكذِّبين، وذكرتِ اتِّهاماتهم للنَّبيِّ ﷺ (بالكذب أو الجنون)، وبَيْنَ التَّوبيخِ على عدم التَّفكُّر في آيات الكون، وهذا يُعمِّق التَّوبيخَ الموجَّه إليهم ويقوّيه؛ إذْ يُظهر أنَّهم لَو أَعْمَلوا عُقولَهُم؛ لرأوا الأدلَّة التي تُبْطِلُ ادِّعاءاتِهم.

معنى حرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾:

إبرازُ اسْتِنْكافِهِم مَـــعَ وضـــوحِ الأدلَّةِ تنبيهٌ على بُـعـدهـم عَـن الإدراك النّافع

نبَّهَ النَّظمُ الكريم على أنَّ الكفّارَ في مَحَلٍّ بُعْدٍ عن الإبصار

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 8/ 522.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/ 271، وجمال، التَّفسير الفريد، ص: 2524.
(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 4/ 364، وابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 406.

النّافع بحرف الغايةِ ﴿إِلَىٰ﴾، فقال: ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: أمامهم[1]، وهذا يُشير إلى أنَّ المُشركين في حالٍ تجعلهم بعيدين عن النَّظرِ النّافع المُفيد، حتَّى مع وجودِ هذه الآيات الكونيَّةِ أمام أعينهم، فهُم لم يَصِلوا إلى الإدراكِ الصَّحيح الذي كان يجبُ أن ينتهيَ إليه هذا النَّظرُ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول في قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾:

إفادةُ الشُّمولِ لكُلِّ ما هو موجودٌ بين أيديهم من المخلوقاتِ

قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: ما يستقبلهُ كلُّ أحدٍ منهم، وما يقع عليه نظرُه مِنَ الكائنات السَّماويَّة والأرضيَّة الدّالَّة على أنَّ الذي قدَّرَ على خلقِ تلك المخلوقاتِ مِن عدَمٍ هو قادر على تجديدِ خلقِ الإنسان بعد العدم[2]، فالتَّعبيرُ بالموصولِ ﴿مَا﴾ يدلُّ على العموم، فهو يُفيد شمولَ كُلِّ ما هو موجود بين أيديهم، سواءٌ أكان من المخلوقات القريبةِ أمامَهم أم البعيدة، وهذا ما يوسِّع دائرةَ الأشياء التي يَجِبُ أن يُلاحظوها، ويتأمَّلوا فيها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالبينيَّة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾:

الإشارةُ إلى ما هو حولهم وفي متناولِ أبصارِهم

معنى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: أمامهم ووراءهم مِمّا حولهم من السَّماء والأرض، فلا سبيلَ لهم إلى فَقْدِ ذلك عن أبصارِهم ولا عدم إحاطتِهِ بهم[3]، فالبَينيَّة تُشير إلى أنَّ الدَّلالات والآيات واضحةٌ وقريبة لأبصارِهم، لكنَّهم أهملوا التَّدبُّرَ فيها.

دلالةُ العطفِ بـ(الواو) في ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾:

إبرازُ قُدرةِ اللهِ سُبحانَهُ وإحاطته بتَعداد مَلكوته

عَطَفَ النَّظمُ الكريم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لِما بَيْنَ المعطوفِ والمعطوف عليه من التَّناسُبِ؛ إذ يجمعهما جامعٌ وهميٌّ، وهو التَّضادُّ والتَّقابل البديعي الذي يدلُّ على إحاطة قُدرة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 453.
(2) الشَّيخ علوان، الفتوحات الإلهية: 6/ 209، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 154.
(3) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 4/ 406، والخطيب، التفسير القرآني: 11/ 781.

اللّه بهم، وزاد من حُسنِ العطفِ وبهائه تقديمُ المعطوف عليه؛ لأنَّهُ أدلُّ على الإحاطة.

واختير حرفُ العطفِ (الواو)؛ لكونِهِ أدلَّ مِن غيرِهِ؛ إذِ المقامُ يقتضي إبْرازَ قُدرةِ اللّه تَعالى وإحاطَتِه بتَعْدادِ مَلكوته[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصول في ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾:

الإشارةُ إلى كلِّ ما هو مُدركٌ مِنَ الآياتِ الشاهدة على قدرة الله تَعالى

قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾، أي: من آياتٍ شاهدة وأدلَّة ناطقة بِقدرة اللّه سبحانه، وعلى علمِهِ الكامل المحيط بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ[2]، فالموصول ﴿مَا﴾ يدلُّ على العموم؛ إذْ يُشير إلى كلِّ ما هو موجودٌ أمامَهُم وخلفهم من مخلوقاتٍ وظواهرَ كونيَّة، والتَّعبيرُ به فيه إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ اللّه كثيرةٌ لا تُحصى، مِمّا يجعل تجاهُلَها ضربًا مِنَ التَّعنُّت والإعراضِ المُتَعَمَّدِ، ودليلًا على العِناد والعَمى عن الحقائقِ.

بديعُ الطِّباقِ في الآية:

الإعلامُ بإحاطةِ الأدلَّةِ والآيات من جميع الجِهات

بين قولِهِ تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى أمامِهم، وقوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ طباقٌ، وفي هذا الطِّباقِ إشارةٌ إلى جميع الجوانبِ مِن كلا الخافِقَين[3]، فالجمعُ بين ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ يوحي بإحاطة الأدلَّةِ والآيات من جميع الجِهات، فالأشياءُ القريبة (الأمام) والماضي أو الأمور التي غابت عنهم (الخلف) كلُّها تَحْوي إشاراتٍ دالَّةً على قدرة اللّه تَعالى، وهذه الإحاطةُ الكاملةُ تشعِرُ بأنَّ الحقائقَ الإيمانيَّة حاضرةٌ في كُلِّ وقتٍ ومكانٍ.

دلالةُ الكنايةِ بِذِكْرِ ما هو أمامهم وما خلفهم:

إحاطةُ العلم الإلهيِّ وقُدرته بكُلِّ شيء

في قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ ذِكْرُ إحاطةِ الأدلَّة والآيات بحواسِّ الإنسان وبصيرته من كلِّ جانبٍ، وفي ذلك كنايةٌ

(1) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 62.
(2) الحجازي، التَّفسير الواضح: 3/ 129.
(3) الشّربيني، السراج المنير: 3/ 350.

عن إحاطة آياتِ اللّه تَعالى بهم قُدرةً وعِلْمًا، وهي كنايةٌ عن صفة، وهذه الكنايةُ تَقصِد إلى إبراز صفةِ الإحاطةِ، وهي إحاطةُ العلمِ الإلهيِّ وقُدرتِه بكلِّ شيء[1].

بلاغةُ الحذفِ في الآيةِ الكريمة:

طـيُّ مـا دلَّ السّـيـاق على تَعْيينِه

قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: إنَّ الآياتِ يُشاهدونها عيانًا، ولكنْ لا يُعْمِلون أفكارَهم فيها، أو أنَّهم يتجاهَلونَها[2]، فحَذْفُ الموصوفِ (الآيات أو المخلوقات) في هذه الجملةِ يُحقِّق إيجازًا بلاغيًّا، والمحذوف ظاهِرٌ من السّياق.

توجيهُ الاقتصارِ على ذِكْرِ الأمام والخَلْفِ دونَ الأَيْمان والشَّمائل:

دقَّـةُ الـبـيـانِ القرآنيِّ في انتقاء الألفاظ الملائِمَة لسياقاتِها

المُرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يستقبله كُلُّ واحدٍ منهم مِنَ الكائناتِ السَّماويَّة والأرضيَّة، وبـ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما هو وراء كُلِّ واحدٍ منهم، فإنَّهم لو شاؤوا؛ لنظروا إليه بأن يَلتَفِتوا إلى ما وراءَهم، وذلك مثل أن ينظروا إلى النِّصف الشَّماليِّ ليلًا، ثُم يَنْظروا إلى النِّصف الجنوبيِّ، فيروا كواكبَ ساطعةً، بعضُها طالعٌ من مَشْرِقِه، وبعضُها هاوٍ إلى مغربِه، وقمرًا مُختلفَ الأشكالِ باختلاف الأيّام، وفي النَّهار بأن ينظروا إلى الشَّمسِ بازغةً وآفلة، وما يُقارِن ذلك من إسْفارٍ وأصيل وشفَقٍ، وكذلك النَّظرُ إلى جبال الأرض وبحارها وأوديتها وما عليها من أنواع الحيوان واختلاف أصنافه[3].

ولم تُذكرِ الأيمانُ والشَّمائلُ كما ذُكِرَت في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: 17]؛ لأنَّه وُجِدَ هنا ما يُغْني عن ذِكرِهما مِن لَفظِ العُمومِ والسَّماءِ والأرضِ، بخِلافِه موضع الأعراف[4].

(1) قاسم، عقد الجُمان، ص: 913، وآل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 61.
(2) البالِيساني، حُسن البيان، ص: 1962.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153.
(4) الأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 465.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

تدبُّرُ جزءٍ مِنَ الكون كافٍ لإثباتِ الحقِّ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ دالٌّ على التَّبعيض[1]، فلم تُطلَب من النّاس الإحاطةُ بجميع أسرار السَّماوات والأرض، بل يكفيهم تدبُّر جزءٍ يسيرٍ مِنْهُما؛ لأنَّ كلَّ جزءٍ مِنْهُما يحمل آياتٍ كافيةً؛ للدِّلالة على قدرة اللّٰهِ تعالى على الخلق والبعث، دون حاجةٍ إلى تتبُّع كُلِّ تفاصيل الكونِ.

بلاغةُ المجازِ في ذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

السَّماءُ والأرضُ وعاءٌ جامعٌ لما أَوْدَعَهُ اللهُ تعالى فيهما

في كلمتَي السَّماء والأرض مجازٌ مرسل بعلاقة المحلّيَّة، فقد أُطلِقتا على محويّاتِهما، كما أُطلِقَتِ القرية على أهلها في قوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82][2]، ويتجلّى المجازُ في هذه العبارةِ مِن خلال التَّعبير عن ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإرادة ما تَضُمّانه ممّا أودعَهُ اللّٰهُ تعالى فيهما مِنْ كواكبَ ونجومٍ ونباتاتٍ، وهذا التَّعبيرُ المجازيُّ يُثري السّياق، ويدعو إلى التَّأمُّل فيما تَحْويه هذه العوالمُ من آياتٍ وعجائبَ دالَّةٍ على القدرة الإلهيَّة.

دلالةُ إفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

توجيهُ النَّظرِ إلى جنس السَّماء والأرض

لمّا لم تدعُ حاجةٌ إلى الجمعِ في لفظَي ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أَفْرَدَ النَّظمُ الكريم كُلًّا منهما، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وهذا راجعٌ إلى بيان المُلْكِ الشّامل المذكور في مطلع السّورة: أنَّ للّٰه كُلَّ ما فيهما[3]، فأُفردتِ اللَّفظتانِ لتوجيه النَّظرِ إلى جنس السَّماء والأرض الشّامل لِكُلِّ ما تحويهما.

من خَلَقَ تلك الأجرامَ العِظامَ؛ لا تُعجزه إعادةُ الأجسام

كما أنَّه تعالى ذكَّرهم بأظهر شيءٍ يُعاينونَه حيثما وُجِدوا، ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا، وفيه دليلٌ على قدرتِه سُبحانه على البعثِ والإحياء، فإنَّ مَن قَدِرَ على خلْقِ تلك الأجرامِ العِظام؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153، وأطفيش، تيسير التفسير: 11/ 371.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 454.

لا تعجزه إعادة الأجسام، فهي إذا قيسَتْ بها؛ كانت كأنَّها لا شيء، كما قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: 81][1].

بديعُ المُطابقة بذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

الـدَّلالـةُ على الإحاطة الكونيَّة المفيدةِ كمالَ عظمة الله وقُدرته

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: أَعَموا، فلم ينظروا إلى السَّماء والأرض، وأنَّهما أينما كانوا، وحيثما ساروا؛ وجَدوهُما أمامَهُم وخلفَهُم مُحيطتَيْن بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، وأنْ يخرجوا عمّا هُم فيه من ملكوتِ اللّهِ تعالى[2].

وبَيْنَ كلمتَي ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ طباقٌ، وهو مفيدٌ إحاطةَ ملكوت اللّه بهم، وتعدَّت بذلك حاسَّةُ البصر إلى الإدراك بها أن تكونَ محسوسةً بين أيديهم وخلفهم؛ تمهيدًا إلى التَّهديد بخَسْفِ الأرض بهم أو إسقاط السَّماء عليهم كِسَفًا، وذلك ليُدْرِكوا قوَّةَ الخالقِ وقُدرته في التَّصرُّف بملكوته الذي هو سببٌ في رِزْقِهِم، فيجعل اللّه تعالى ذلكَ سببًا في هلاكهم[3].

دلالةُ الإطناب بذكر ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

إيضاحُ الصّورة بالتَّفصيلِ والإطنابِ

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ينظرون إلى ما خلقَهُ اللّه في كونهِ مِنَ السَّماء والأرض، وذلك بالنِّسبة إليهم: بعضُه بين أيديهم، وبعضُه خلفهم، فمِن مواقع أقدامِهم إلى جهة امتداد بصرهم: شَطْرُ الأرض وشطرُ السَّماء، وهو واقعٌ بين أَيْديهم، ويُقابلهُ مِنَ الجهةِ الأخرى ما هو واقعٌ خلفهم، وجاءت العبارةُ على التَّفصيل والإطناب؛ لإيضاح الصّورة والإرْعابِ.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 62.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 65.
(3) آل مبارك، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 61.

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾:

التَّحذيرُ مِن إهمال التَّفكُّرِ بعد الدَّعوةِ إليه والدَّلالة عليه

فُصِلَت قول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا لفعل الرُّؤيةِ الدّاعي إلى التَّفكُّر في السَّماء والأرض؛ لكون قولِ الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾ جوابًا عن سؤال تضمَّنتهُ الجُملة المتقدِّمة، والتَّقدير: ماذا سيفعلُ اللهُ بهم إن تجاهلوا أمرَ التَّفَكُّرِ فيهما؟ فجاء الجواب: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾، فيكون بين الجملتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصال.

وفي هذا السُّؤالِ المقدَّر وجوابِهِ تحذيرٌ من إهمال التَّفكُّرِ، وتهديدٌ عن التَّغافلِ عنهُ بعدَ الدَّعوة إليه والدَّلالة عليه.

بلاغةُ الاعتراضِ في قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾:

تأكيدُ القُدرةِ الإلهيَّة بالتَّذكير بمصائر المُكذِّبين

قول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ واردٌ على جهة الاعتراض، والمقصودُ به التَّهديدُ، وهو مناسبٌ للتَّعجيب الإنكاريِّ المتقدِّم بما يُذكِّرهم بقُدرة خالقِ تلك المخلوقات العظيمة على عقاب الذين أشركوا معه غيرَهُ، والذين ضيَّقوا واسعَ قُدرتِهِ، وكذَّبوا رَسولَهُ ﷺ، وما يخطر في عقولِهم ذِكْرُ الأمم الَّتي أصابها عقابٌ بشيءٍ من الكائنات الأرضيَّة كالخسف، أو السَّماويَّة كإسقاط كِسَفٍ مِنَ الأجرام السَّماويَّة، مثل ما أصاب قارونَ مِنَ الخسفِ، وما أصاب أهلَ الأيكةِ من سُقوط الكِسَفِ[1].

فعندما لفَتَ النَّظمُ الكريم أنظارَهم إلى السَّماوات والأرض، وما يترتَّب مِنَ التَّأمُّل فيهما من التَّوبة والرُّجوع إلى الله، والتَّذكير بإحاطة السَّماءِ والأرضِ وما فيهما من آياتِ الله؛ ناسبَ أن يُؤتى بالجملة الاعتراضيَّة: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ في مقام التَّهديد، وفيه إشارةٌ إلى مصارعِ الأمم السّابقةِ، فالمعنى: إن نشأ؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 153.

نخسف بهِم الأرض كما خَسفناها بقارون، أو نسقط عليهم كِسَفًا - أَيْ: قِطَعًا - مِن السَّماء، كما أسقطنا على أصحاب الأيكةِ؛ لتكذيبِهم بالآياتِ بعد ظهور البَيِّنات[1].

التَّنبيهُ على بُلوغِهم في التَّقصيرِ مَبلغًا يستحقّون بهِ العذابَ

كما أنَّ في جُملةِ الاعتراض التَّأكيدَ على تقصيرهم، والتَّنبيهَ على أنَّهم بلغوا فيه مبلغًا يستحقّون بهِ في الدُّنيا فضلًا عن الأخرى نزولَ أشدِّ العقابِ وحلولَ أفظعِ العذاب، وأنَّه لم يبقَ مِن أسباب ذلك إلّا تَعلُّقُ المشيئةِ بهِ[2].

نُكتةُ تقييدِ فعل المشيئةِ بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

الدَّلالةُ على إمهالِ اللهِ لهم ورحمته بهم

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بـ ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾، وهي شرطيَّةٌ تدلُّ على تقييد حصول الجزاءِ بحصول الشَّرط في الاستقبال، مثل قولِكَ: إن جئتَني؛ أكرمتُك، ومثلها (إذا)، إلّا أنَّ الفرقَ بينَهُما هو أنَّ (إنْ) تدلُّ على الشَّكِّ في وقوع مدخولِها، بخلاف (إذا)؛ فإنَّها تدلُّ على القطعِ والجزمِ بوقوعِ مدخولِها، وبهذا نُدرك السِّرَّ في اختيار ﴿إِن﴾ دون (إذا) في الآيةِ الكريمةِ؛ لِما في معنى ﴿إِن﴾ وتعليق المشيئةِ بها مِن دلالةٍ على إمهالِ اللهِ تعالى لهم ورحمته بهم؛ لعلَّ تفكُّرَهُم بآياتِهِ يُنَجّيهِم مِن عقابِهِ المُحدِقِ بهم، وفي التَّعبير بها أيضًا تَنبيهٌ على أنَّه لم يَبْقَ مِن أسبابِ وُقوعِ العذابِ إلّا تَعلُّقُ مَشيئةِ اللهِ به[3].

لطيفةُ إسنادِ فِعْلَي المشيئة والخسف إلى ضمير العظمةِ:

إظهارُ عظمةِ المشيئةِ الإلهيَّة وتعظيم عذابِهِ النّازل على مَن عصاه

في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالةٌ على أنَّ ما يحصُلُ مِن الخَسْفِ والزَّلازلِ والنَّوازلِ، فإنَّه بإذْنِ اللهِ؛ عقوبةً للعِبادِ واعتبارًا، خلافًا لِمَن قال: إنَّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 286.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 123.

هذه أمورٌ طبيعيَّةٌ لا تدُلُّ على غضبِ اللهِ ولا على إنذارِه - كما هو رأيُ مَن لا يؤمنُ باللهِ تعالى - فالخَسْفُ في الأرضِ عقوبةٌ، وما يأتي مِنَ الصَّواعقِ والكوارثِ الأفقيَّةِ عقوبةٌ أيضًا[1]، ولمّا كان الإنكارُ لائقًا بمقامِ العظمة، فكان المعنى: إنّا نفعلُ بهما وفيهما ما نشاءُ؛ عبَّر بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ﴾، أي: بما لَنا مِنَ العَظَمَةِ[2].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نَخْسِفْ﴾:

قرأ جمهورُ القرّاء ﴿نَّشَأْ﴾ و﴿نَخْسِفْ﴾ و﴿نُسْقِطْ﴾ بالنّون، وذلك بإسنادِ الأفعال الثَّلاثة إلى نون العظمةِ؛ تعظيمًا لشأن مشيئة الله تعالى وعذابه الذي يحلُّ بأهلِ الكُفر والضَّلالِ، ويكون في الآيةِ التفاتٌ؛ لأنَّ الكلامَ في الآية المتقدِّمة كان على الغَيبةِ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فعُدِلَ عن الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم؛ لأنَّ التَّكلُّمَ أدخَلُ في التَّرهيبِ والتَّخويف.

التَّكاملُ الدّلالي للقراءات القرآنيَّةِ

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ البزّار الأفعالَ الثَّلاثة بالياء ﴿يَشَأْ﴾ و﴿يَخْسِفْ﴾ و﴿يُسْقِطْ﴾ على الغَيبة[3]؛ بناءً على أنَّ في الأفعال المذكورة ضميرًا مستترًا يعودُ إلى الله سُبحانَهُ المذكور في قوله قبلُ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

وأدغم الكسائيُّ الفاءَ في الباء ﴿يَخْسِف بِّهِمُ﴾، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّه سُبحانه قد يفعل ذلك في أسرع من لَمْحِ البصر، وأمّا على قراءة مَن أظهَرَ؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّ الله تعالى يوقِعُ الخسْفَ على وجهِ الوضوح[4].

دلالةُ ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: الَّتي تحتهم، كما خَسَفنا بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الَّتي هي

الـدَّلالـةُ على تنويعِ العقوباتِ والإشـارة إلـى إحاطتها بالظّالمين

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 83.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 454.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 349، وابن البنّا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 458.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 454.

فوقهم[1]، فحرف ﴿أَوْ﴾ يُبرزُ تنويعَ العقوبات، وأنَّ هُناك طرائقَ للعذاب وأساليب لَهُ، فالسَّماءُ والأرضُ مُحيطتان بهم، فيعلمون أنَّه لا مهربَ لهم مِنَ اللّٰه[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى إحاطةِ عقوباتِ اللّٰه سُبحانَهُ وقدرته على كلِّ شيء.

لطيفةُ إسنادِ فعل الإسقاطِ إلى ضميرِ العظمةِ:

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿نُسْقِطْ﴾ فعلٌ مضارعٌ، فاعلُهُ ضمير مستتر وجوبًا، تقديره: نحن، وذلك راجعٌ إلى اللّٰهِ ﷻ، والمعنى: لفعلنا ذلك بقدرتنا عليهم؛ جزاءَ ظُلمِهم وكفرِهم، ولكنّا نُؤَخِّر ذلك عنهم لِحِلْمِنا، وهذا يُشير إلى هيمنتِهِ المُطلقة على الكونِ وقُدرتهِ على التَّصرُّف بالعظمة والجلال.

إبـرازُ الهيمنةِ المُطلقة للهِ ربِّ العالمين

وإسنادُ الفعل إلى ضميرِ الكِبْرياء يُفيد التَّعظيمَ والتَّفخيمَ، وهذا مِمّا يُضْفي جلالًا وهيبَةً على فِعْلِ العقابِ[3].

بلاغةُ المُقابلة في الآية الكريمة:

تَبْرُزُ المقابلةُ في قوله: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بَين معنى الاستعلاءِ والمُصاحبة، وبين الأرض والسَّماء، ولا يخفى ما في ذلك مِنَ التَّرهيب والوعيد، وذلك بِالمُقابلة بين هذين المَعْنَيَيْن، فقد جاءت الآية أوَّلًا بِتَنْبيههِم إلى عظمةِ الكون الذي يعيشون فيه بما فيه مِن أسبابِ عَيْشِهم وعِمادِ حَياتِهم، ثُمَّ صعَقَتْهُم ببيانِ أنَّ ذلك الكون قد يكونُ وسيلةً في هلاكهم ومحلًّا لعقوبتهم، فلا مهربَ لَهُم؛ لأنَّهم مَهْما جَرَوا هاربين؛ فإنَّ السَّماءَ لا تزالُ فوقهم، والأرضَ تحتهم، واللّٰه تعالى قاهرٌ لهم متى شاء؛ خَسف بهم، أو أسقط السَّماءَ عليهم كِسَفًا[4].

بيانُ قَهْرِ اللّٰه تعالى للعبادِ وأنَّه لا مهربَ لَهُم مِن عذابه

(1) الرَّسعني، رموز الكنوز في تفسير: 6/ 214.
(2) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 162.
(3) الفرماوي، السَّهل المُفيد، ص: 42.
(4) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306، وآل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 62.

معنى حرف الجرِّ (على):

قوله تعالى: ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا﴾، أي: قطعًا مُهلكة لهم من السَّماء، فَتَدْفِنَهُم تحتها، ومجيءُ الحرفِ (على) الدّال على الاستعلاء والهَيْمَنة يقتضي أنَّ الإسقاطَ يأتي من جهةٍ عُليا؛ ليُغَطّيَهُم، أو يُحاصِرَهُم، مِمّا يشير إلى أنَّ العذابَ سيكون مِن فوق رُؤوسِهم في صورةِ تهديدٍ مستعلٍ، لا يمكنهم الفرارُ منه، وفي ذلك مِنَ القهرِ والغلبة ما فيه، فهو يُشيرُ إلى تَسَلُّط العقابِ عليهم، وكأنَّهم تحت سلطةِ ذلك العذاب الذي لا يُمْكِنُهم دفعه، وهذا كلُّهُ يدلُّ على حقارةِ الإنسانِ وضَعْفِه تُجاهَ العظمة الإلهيَّةِ[1].

الدَّلالةُ على حقارةِ الإنسانِ تُجاه العظمةِ الإلهيَّة

نُكتةُ تقييدِ فعلِ الإسقاط بـ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

قُيِّدَ فعلُ الإسقاط بحرف الجرِّ (على) في قول اللّه تعالى: ﴿نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الضَّرر مقصودٌ على هؤلاء القومِ بِعَيْنِهم، فَهُمُ الذين يستحقّون هذه العقوبةَ، بِأَن تَساقَطَت عليهم قِطَعُ السَّماء؛ لِعِظَمِ ما خاضوا فيه من جُحود المعاد، والاستهزاء بالمبعوثِ رحمةً للعباد ﷺ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذه العقوبةَ نازلةٌ عليهم من فوقُ، وذلك يقتضي شدَّةَ هذا النّازل، وأنَّهُ ممّا لا يُمكِنُ صدُّهُ.

بيانُ أنَّ العقابَ مقصودٌ على هؤلاء القوم بعينهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كِسَفٗا﴾ مُنَكَّرًا مَجْموعًا:

قوله تعالى: ﴿كِسَفٗا﴾، أي: قِطَعًا من السَّماء، كالنَّيازك والمذنَّبات والأشعَّة الكونيَّة التي تسقطُ عليهم[3] مِنَ السَّماء، فَتُهْلِكُهم عن آخرهم، فلا يَجِدون مهربًا[4]، وقد وردت كلمةُ ﴿كِسَفٗا﴾ منكَّرةً تعظيمًا وتفخيمًا لشأنِها؛ وذلك لإدخالِ الرُّعب في نفوس المُشركين

بَثُّ الرُّعبِ في نفوس المُشركين وزجرهم

(1) الزِّين، بيان النَّظم: 3/ 376.
(2) التَّعليب، فتح الرحمن، ص: 2845.
(3) الزِّين، بيان النَّظم: 3/ 376.
(4) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 306.

أن يروا السَّماء التي كانت سببًا في رزقهم قد صارت كِسَفًا عظيمةً تتساقط عليهم.

وإيرادُ لفظِ ﴿كِسَفًا﴾ مجموعًا دالٌّ على كثرةِ الكِسَفِ النّازلة عليهم من السَّماء، وهذا أدخَلُ في الوَعيد والتَّهديدِ.

دلالةُ حَصْرِ العذابِ في (الفوق) و(التَّحت):

الهلاكُ المحتومُ تهديدٌ من السَّماء والأرض لا مَفَرَّ منه

ذِكْرُ السَّماء والأرض يُفيد أنَّ القِطَعَ مِنَ العذاب نازلةٌ مِن فوقهم، وخسْفُ الأرض حاصلٌ مِنَ تحتهم، وإنَّما ذُكِرَ الفوق والتَّحت؛ لأنَّه لا يُمكن الفرارُ منهما، بخلاف اليمين والشِّمال والخلف والأمام، فإنَّهُ قد يتأتّى الفرارُ إلى جِهةٍ غير الجهة الَّتي جاء مِنها العذابُ، فلو جاء عدوٌّ مِنَ الخلف؛ أمكن الفرارُ منه إلى الأمام، ولو جاء مِنَ الأمام؛ أمكنَ الفِرارُ منه إلى الخلف، لكن إذا جاء من فوق أين يذهب؟ وإذا جاءه عذابٌ مِن تحتُ؛ فإلى أيِّ جهةٍ يفِرُّ؟ فلا يستطيع الفرارُ منه أبدًا، ولهذا هدَّدهم الله تعالى بأَمْرَيْنِ لا يُمْكِنُهم الفرارُ منهما[1].

سِرُّ تقديم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أوَّلًا وتَقديم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ ثانيًا:

إظهارُ براعةِ النَّظمِ بين الامتنان والتَّرهيب بين سياق التَّفكُّر وسياق التَّعذيب

في قولِ الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضَ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ نَلْحَظُ في النَّظم الكريم أنَّه قدَّم أوَّلًا ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿وَٱلْأَرْضَ ۚ﴾ في سياق الأمر بالتَّفكُّر في ملكوت اللهِ تَعالى التي تُحيطُ بِهم على سبيلِ الامْتِنان، ثُمَّ قَدَّم المؤخَّرَ بعد ذلك في سياق التَّهديد، فالنُّفوس في أرزاقها مُعلَّقة بالسَّماء؛ لما فيها مِن أسباب العيشِ والحياةِ، فكان التَّقديم هُنا سببيًّا، أمّا في تقديم النَّظم للأرض في سياق التَّهديدِ؛ فكان الغرضُ منه التَّرهيبَ في أن يكونَ الملاذ الآمن لهم لملاصقتِهم به وعيشِهم عليه هو مكان هلاكِهم[2].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 78.

(2) ابن الأثير، المثل السّائر: 3/ 173، وآل مبارك، البلاغة القرآنيَّة في سورة سبأ، ص: 64.

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ عمّا قبلَهُ:

تعظيمُ شأنِ التَّفكُّرِ الموصلِ إلى العلمِ بعظمة الخالقِ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عمّا قبلها؛ لما بينهما من كمالِ الاتِّصال؛ إذ جاءت الآيةُ مُؤكِّدَةً لها لإبراز قيمة التَّفكُّرِ الذي يَتَوَصَّل به العبدُ إلى عظمة الخالق، فلو أنَّهم أعملوا فِكْرَهم فيما أحاطَ بهم مِنَ الآياتِ الكونيَّة؛ لتوَصَّلوا إلى حقيقة البعث، ففي النَّظرِ إلى السَّماء والأرض والتَّفكُّر فيهما - وما يدلّان عليه من كمال قُدرتِهِ تعالى - لَدلالةٌ ظاهرة على البعثِ والإنشاء من بعد التَّفريق[1].

معنى ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾:

التَّعليلُ المُؤكِّدُ للتَّعجيبِ الإنكاريِّ حثٌّ على التَّدبُّر والتَّأمُّل

قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ واردٌ على جِهَةِ التَّعليل؛ لإرادةِ التَّعجيب الإنكاريِّ باعتبار ما يتضمَّنُهُ مِنَ الحثِّ على التَّأمُّل والتَّدبُّر، فلمّا كان هذا أمرًا ظاهرًا؛ أنتج قوله مؤكِّدًا لِما لَهُم من إنكار البعث: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في قدرتنا على ما نشاءُ من كُلٍّ منهما، والتَّأمُّل في فنون تصاريفهما[2]، فموقعُ حرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ هُنا التَّعليلُ، والغرضُ من تأكيد الخبرِ الحثُّ على التَّدبُّر والتَّأمُّل، وإعمال البصائر المستفادةِ من الفعل ﴿يَرَوْا﴾، فليس المرادُ الرُّؤيةَ المجرَّدة بالعَيْن، بل الحثُّ على إعمالِ الرُّؤى وإطلاق الفكر بما أودعَهُ اللّه تعالى فيها مِنَ الفِطْرَةِ السَّليمة[3].

بيانُ مرجعِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ودلالته:

الإشارة إلى عظمةِ الأدلَّةِ على قدرةِ الله تعالى

قولُ اللّه تعالى: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: فيما ذُكِرَ من السَّماء والأرض، من حيثُ إحاطتُهما بالنّاظرِ مِن جميع جوانب الكونِ الرَّحيب، وما يَرَوْنَ فيه من عجائبِ صُنع اللّه تَعالى[4].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 6/ 65، والواحدي، التَّفسير البسيط، ص: 319.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 455.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 154.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 264، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 271، والفرماوي، السَّهل المُفيد، ص: 43.

فالإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآيةِ تعود إلى ما تقدَّم ذِكْرُهُ في الآية من أدلَّةٍ على قدرةِ الله تعالى وعظمتِه، وأنَّها عظيمةُ الشَّأن تستحقُّ التَّفكُّر والتَّأمُّل؛ لأنَّ المعانيَ المتقدِّمةَ مِن عجائبِ قدرة الله سُبحانَهُ وأدلَّته، بعيدةٌ في مكانَتِها وسُموِّها؛ ولذا جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ.

نُكتةُ تَنْكيرِ لفظِ ﴿لَّآيَةً﴾، ولطيفة إفرادها:

تعظيمُ الأدلَّةِ وتفخيم شأنها

الآيةُ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، أي: لعلامَةً عظيمةً دالَّةً على قُدرتنا على البعثِ بعد الموتِ[1]، فالتَّنكيرُ في لفظ ﴿لَّآيَةً﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ وتفخيمُ شأنِها وقدرِها، وهذا يوحي بأنَّها علامةٌ لا يُدْرَكُ مَداها إلّا بالتَّأمُّل في قدرة الله تعالى.

وأوردت لفظةُ ﴿لَّآيَةً﴾ مفردةً مع تَنْكيرها؛ للدِّلالةِ على أنَّ هذه الآية الواحدة عظيمةٌ بذاتها، وكافية لتَكونَ حُجَّةً قاطعة على قدرةِ اللهِ تَعالى المطلقةِ.

لطيفةُ الإفرادِ في لفظ ﴿لَّآيَةً﴾ وجمعها بعدُ:

التَّصرُّف في الألفاظ إفرادًا وجَمْعًا بِما يُلائِمُ السّياق

في إفراد لفظ ﴿لَّآيَةً﴾ وجمعها مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ جاءت الآيةُ هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ بالإفرادِ، وقال الله تعالى بعدُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: 19] بالجمْعِ، ووَجْهُ ذلكَ: أنَّ الإشارةَ هُنا إلى قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾، ولم يَتقدَّمْ ما حُرِّكوا إلى الاعتبارِ به غيرُ هذا، وقد انضَمَّ ذلك تحتَ ﴿مَا﴾ الموصولةِ، ولَفظُها مُفرَدٌ، فروعيَ الإفرادُ لأجل لفظِ ﴿مَا﴾، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بالإفرادِ.

أمّا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ:

(1) المكي، المُعين على تدبُّر الكتاب المُبين، ص: 429.

19]، فتَقدَّمَهُ قولُه: ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، ثمَّ قال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾، إلى قوله: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، ثمَّ قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ﴾ [سبأ: 15]، فذَكَّرَ سُبحانَهُ بالاعتبارِ بما منَحَ داوودَ ﷺ من تَسبيحِ الجبالِ والطَّيرِ معه، وإلانةِ الحديدِ، وبما سخَّرَ لِسُليمانَ ﷺ من الرِّيحِ تَحمِلُهُ وجُنودَه حيث شاء في السُّرعةِ التي أشارَتْ إليها الآيةُ، وإسالةِ عَينِ القِطرِ له، وعمَلِ الجِنِّ بيْن يَديْه، ثمَّ ذكَرَ ما كان لِسَبأٍ في مَساكنِهم من آيةِ الجنَّتين عن يَمينٍ وشِمالٍ، وأكْلِهم منها، وتَنعيمِهم إلى أنْ أعرَضوا، فأرسَلَ عليهم سَيْلَ العَرِمِ، إلى آخرِ قِصَّتِهم، فهذه المُعتبراتُ لم تَدخُلْ تحتَ مَوصولٍ، ولا اسمِ مُفرَدٍ يَضُمُّ جَميعَها، بل ذُكِرَت مُفصَّلةً، فقيل إشارةً إلى جميعِها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ [سبأ: 19][1].

مَعنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾:

إظهارُ اختصاصِ أهلِ العبادةِ بالانتفاعِ بالآياتِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ تدلُّ على الاختصاصِ، وتتجلَّى بلاغةُ الاختصاصِ من حيثُ إفرادُ الفِئَةِ المَعْنيَّة بالخطاب، وهو كلُّ مَنْ أنابَ إلى اللّه تعالى، ورجعَ إليه، وتأمَّل في خَلْقِه[2]، وذلك دالٌّ على عِظَمِ شأنِ عبادة اللّه سُبحانَهُ والرُّجوعِ إليه ﷻ، فالآيةُ تُظهر أنَّ هذه العلامةَ مُتوجِّهةٌ إلى العباد المُخلصين الذين يَتَّسمون بالتَّوجُّه القلبيِّ نحو خالقهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (كُلّ):

شمولُ الخطابِ لجميعِ العبادِ المنيبينَ

لفظ (كُلّ) في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ

(1) أبو جعفر الغرناطي، ملاك التَّأويل، ص: 408، 409، والكرماني، أسرار التَّكرار، ص: 208، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/ 384، والأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 465.
(2) ياقوت، إعراب القرآن، ص: 3784، والزَّجاج، معاني القرآن، ص: 242.

﴿مُّنِيبٍ﴾ يدلُّ على العموم والشُّمول في العباد المُقبلين إلى الله بالإخلاص[1]، بحيث لا يَخْرُج عنِ الخطاب أيُّ فردٍ من أفرادِ العبادِ الموصوفين بالإنابةِ، فقوله سُبحانه: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾، يُفْهَمُ منه أنَّ كلَّ عبد منيبٍ - بصرفِ النَّظر عن زمانه أو مكانهِ - مشمولٌ بالانتفاع بهذه الآية، فما مِن عبدٍ يُنيب إلى الله سُبحانَهُ إلّا وله حظٌّ مِن هذه الآيةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ العبوديَّة ﴿عَبْدٍ﴾، ولطيفة تنكيره:

الإشـادَةُ بمقام العبوديَّة وبيانُ عِظَمِ مقامه

قال الله تعالى: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ أي: مُتحقِّقٍ أنَّه مربوبٌ ضعيف مُسخَّرٌ لما يُراد منه[2]، ونُكِّر لفظُ ﴿عَبْدٍ﴾ تعظيمًا وتفخيمًا لمقام العبوديَّة، فالآيةُ لا تُميِّز بين فردٍ وآخرَ إلّا بالنَّظَرِ إلى التَّحقُّقِ بالعبوديَّة للهِ تَعالى، وفي هذا مِنَ الإشادة بمقام العبوديَّة ما فيه.

مُناسبةُ وصفِ العبدِ بالإنابةِ، وسرُّ تخصيصهِ بالذِّكر:

الرّاجعُ إلى ربِّه دائـمُ الاعـتبـار والاسـتـبـصـار بآياتِ اللهِ تعالى

المُنيبُ هو الرّاجع بفكرهِ إلى البحث عمّا فيه كمالُهُ النَّفسانيُّ وحُسن مصيرهِ في الآخرة، فهو يُقَدِّرُ المواعظ حقَّ قدرها، ويعاود النَّظر فيها حتَّى يهتديَ، ولا يرفضُ نصْحَ النّاصحين وإرشاد المُرشدين مُرْتَديًا برداء المتكبِّرين، فلا يَخْلو حالُهُ مِنَ النَّظر في أدلَّةِ قدرة الله تعالى، فالرّاجع إلى ربِّه قلَّما يخلو من الاعتبارِ والاستبصار بآيات الله سُبحانَهُ، فيعتبر، ويَعْلَم أنَّ مَن قَدِرَ على إنشاءِ هذه الأجرام العظامِ؛ قادِرٌ على إحياء الأموات وبعْثِها، وحسابها وعقابها[3].

الـحـثُّ عـلى الإنـابـةِ إلى الله والرُّجوع إليه

وخُصَّ المنيبُ بالذِّكر؛ لأنَّه هو المنتفعُ بالتَّفكُّر في حُجَج الله تَعالى

(1) الهواري، تفسير كتاب الله العزيز: 3/ 341، والقيرواني، تفسير يحيى بن سلام: 2/ 747.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 455.
(3) أبو حيان الغرناطي، النَّهر المادّ: 2/ 744، والأعرج، تفسير غرائب القرآن: 5/485، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 154.

وآياته، فيكون نَظَرُهُ للمخلوقات نظرَ فِكْرٍ وعبرةٍ، لا نظرَ غفلةٍ غيرِ نافعة[1]، فإذا تأمَّل فيما يراه، وتأمَّل قدرةَ الله تعالى؛ انْزجَر عن القبائح، وفي هذا حثٌّ لَهُم على سلوكِ مسلكِ الإنابة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّظر والبصر والرُّؤية:

الإبصارُ يتميَّزُ بالوضوح، والرُّؤيةُ تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّلُ

النَّظرُ هو عبارةٌ عن تقليب العين نحْوَ المرئيِّ التماسًا لرؤيته، فهو طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكون النّاظرُ الطّالبُ لظهور الشَّيء بإدراكِهِ من جهة حاسَّة بَصَرِه أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلبِ من جهة التَّفَكُّر، والنَّظرُ هو الفكر والتَّأمُّل في أحوال الأشياء[3]، والرُّؤية هي إدراك المرئيِّ، ولذلك قد ينظر، ولا يراه، ولمّا كانت الرُّؤيةُ من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظرِ على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسمِ السَّببِ على المسبَّب[4]، كما ورد في قول الله تعالى حكايةً لقولِ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]، فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يَطْلُب جماعةٌ الهلالَ، فيراهُ جماعة منهم، ولا يستطيعُ الآخرونَ رؤيتَهُ، مع أنَّهُم جميعًا ناظرون[5]، فالفرقُ بين الرُّؤيةِ والنَّظرِ: أنَّ الرُّؤيةَ هي إدراك المرئيِّ، والنَّظر هو الإقبالُ بالبصر نحو المرئيِّ.

أمّا البصرُ؛ فهو إدراكُ العين، ويُطلق على القوَّة الباصرةِ التي من شأنِها إدراكُ أشباح الصّور[6]، والعينُ هي أداة الإبصار، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلَقُ البصرُ على

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 810.
(2) المنصوري، المقتطف من عيون التَّفاسير، ص: 290.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(6) الكفويُّ، الكليّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 938.

العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُر بالشَّيءِ: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصيرٌ به[1]، قال الله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرقُ بين النَّظر والبصرِ كالفرق بين النَّظرِ والرُّؤيةِ، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وحاصلُ الفرق بينها: أنَّ الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّزُ بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّلُ، وهذا ظاهرٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ.

الإياب والرُّجوع والإنابة:

الإيابُ رجوعٌ إلى مُنْتَهى المقصد، والإنابةُ رجوع إلى الطّاعة، والرُّجوعُ أعمُّ

الإيابُ: هو الرُّجوعُ إلى منتهى المقصدِ، والرُّجوعُ يكون لذلك ولغيره، فيُقال: رجعَ إلى بعضِ الطَّريق، ولا يُقال: آب إلى بعض الطَّريقِ، ولكنْ يُقال: رجعَ إلى منزلِه، ولهذا قال أهلُ اللُّغةِ: التَّأويبُ أَنْ يَمْضيَ الرَّجل في حاجته، ثُمَّ يعود، فيثبت في منزلِه[2]، فالتَّأويبُ: الرُّجوعُ، ومَبيتُ الرَّجل في منزلِه وأهله[3]، وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ الإيابَ الرَّجوعُ إلى مُنْتَهى القَصْدِ، ولِهذا قال تَعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنَّ القيامَةَ مُنْتهى قَصْدِهِمْ؛ لِأَنَّها لا مَنْزِلَةَ بَعْدَها.

والرُّجوعُ أيضًا عامٌّ في الطّاعةِ والمَعصيةِ، بخلاف الإنابة؛ فهي الرُّجوع إلَى الطّاعَةِ، فَلا يُقال لمن رَجَعَ إلَى مَعصية: إنَّه أنابَ، والمُنيبُ اسْمٌ دالٌّ على المدحِ، كالمؤمن والمُتَّقي[4].

(1) الحميري، شمس العلوم: 1/ 544.
(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 303.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 219.
(4) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 302 - 303.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»